OPEN ACCESS
Received: 09 -01 -2026
Accepted: 16- 04-2026

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

Manifestations of Historical Memory in the Poetry of Al-Baradouni and Al-Maqaleh

Dr. Yasser Fadhl Saleh Al-Aamiri*
yasser.alaamri2022@gmail.com

Abstract

This study examines the manifestations of historical memory in the poetry of Al-Baradouni and Al-Maqaleh, focusing on its role in shaping the vision and aesthetics of the modernist poem in Yemen. The research argues that historical memory functions as a dynamic poetic resource that moves between remembrance and dream, allowing poets to engage critically and imaginatively with reality. Through selected poems and titles from both poets' works, the study explores how memory extends across textual structures and becomes a central mechanism for producing meaning in Yemeni poetic modernism. The analysis reveals that the invocation of history serves multiple purposes: criticizing contemporary reality, reviving collective consciousness, and projecting fragments of the past into imagined future possibilities. The study further demonstrates that poetic memory draws upon diverse human and cultural references, reflecting the deep interconnection between modern poetry and inherited historical experience. Employing artistic analysis with insights from semiotic criticism, the research highlights the ways in which Al-Baradouni and Al-Maqaleh transform historical memory into a poetic strategy capable of transcending the limitations of present reality through the creation of symbolic and visionary spaces. The study concludes that memory occupies a foundational position in the construction of contemporary Yemeni poetic discourse and in articulating the poets' intellectual and emotional engagement with their world.

Keywords: Historical Memory, Modernist Poem, Contemporary Yemeni Poetry, Employment of Memory, Human Heritage.

* Associate Professor of Modern Literature and Criticism, Department of Arabic Language, College of Education, University of Aden, Yemen.

Cite this article as: Al-Amri, Y. F. S. (2026). Manifestations of Historical Memory in the Poetry of Al-Baradouni and Al-Maqaleh, *Arts for Linguistic & Literary Studies*, *8*(2): 214 -235 https://doi.org/10.53286/h4ch1060

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2026/01/09م
تاريخ القبول: 2026/04/16م

تجليات الذاكرة التاريخية في شعر البردوني والمقالح

د. ياسر فضل صالح العامري*
yasser.alaamri2022@gmail.com

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن منظور الرؤية الشعرية في توظيفها مخزون الذاكرة التاريخية في الشعر، وما تتسم به من تماوج بين التذكر والحلم في قصيدة الحداثة في اليمن. وقد أشارت إلى أن ذاكرة الشعر تتسم بتنوعها وتعدد مرجعياتها وتمددها في أعماق التراث الإنساني بكل أبعاده وملابساته الموروثة. واكتفت، في سبيل إبراز أثر الذاكرة التاريخية في إنتاج الدلالة، بالوقوف على نتاج البردوني والمقالح بوصفهما من أبرز شعراء الحداثة في اليمن، وأكثرهما اتكاءً على الذاكرة، واستدعاءً للتاريخ في شعرهما. وكشفت الدراسة عن حضور الذاكرة في عناوين دواوينهما وقصائدهما، وتمددها في ثنايا بنياتها النصية، بحيث أصبحت واحدة من أبرز وسائل الحداثة الشعرية في اليمن إنتاجا للدلالة. وقد تبين، من خلال الوقوف على بعض العناوين والمتون النصية وتحليلها، اهتمام قصيدة الحداثة بتوظيف الذاكرة؛ لندب الواقع ونقده حينًا، واستنهاضه حينًا آخر، ومحاولة بعث بعض ملامحه، في لوحة المستقبل، أحيانًا أخرى، بأسلوب لا يخلو من الإيحاء بتجاوز الواقع؛ لصعوبة تغييره، بالقفز عليه إلى تشكيل لوحة الحلم. وقد استعانت الدراسة بمنهج التحليل الفني مع الاستفادة من أصداء مناهج أخرى كالمنهج السيميائي. وتأتي أهميتها من كونها تسعى إلى البحث عن مظاهر توظيف البردوني والمقالح للتاريخ في شعرهما، وأثره في الكشف عن رؤية الشاعرين وموقفهما تجاه واقعهما.

الكلمات المفتاحية: الذاكرة التاريخية، قصيدة الحداثة، الشعر اليمني المعاصر، توظيف الذاكرة، التراث الإنساني.

* أستاذ الأدب الحديث والنقد المشارك، قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة عدن، الجمهورية اليمنية.

للاقتباس: العامري، ي. ف. ص. (2026). تجليات الذاكرة التاريخية في شعر البردوني والمقالح، *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية*، *8*(2): 214- 235 https://doi.org/10.53286/h4ch1060

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

المقدمة:

اتسمت القصيدة العربية منذ نشأتها بنزوعها إلى التذكر باستحضار الماضي حينًا، وميلها إلى التطلع حينًا آخر، حيث اتصفت في العصر الجاهلي، بنموذجها المثال، بوصفها نسيجًا شعريًا تتماوج أغراضه بين لوحتي التذكر، ممثلًا في لوحة الطلل، وتحقيق حلم نيل عطاء الممدوح الذي تُشد لأجله الرحال وتُركب إليه الأهوال، وقد لاحظ النقاد القدماء بناء القصيدة على هذه الشاكلة وعدوه بناء يحتذى، حيث أشار ابن قتيبة إلى: أن مقصّد القصيد ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار؛ ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها، ثم وصل ذلك بالنسيب، ثم يصف الرحلة وما يعانيه فيها من مكاره ومشقة، ويخلص منها إلى المديح في سبيل نيل مكافأة الممدوح(ابن قتيبة، 2003، ص75، 76) وتحقيق حلم العطاء.

هذا التداعي لمخيلة الشعراء المتماوجة بين التذكر والحلم، رغم بساطته في البدايات، رافق القصيدة في عصورها المختلفة بصور متعددة ومذاهب شتى، وقد تشعبت صوره وتعقدت في شعر الحداثة العربية المعاصرة، متمشية في ذلك مع تعقد طبيعة الحياة المعاصرة وتشعبها، فجاءت ذاكرة الشعراء مركبة من مصادر متنوعة: ذاتية، وتجارب فردية، وإرث، وثقافات إنسانية، تاريخية، ودينية، وأسطورية، وموروث شعبي، تشمل الموروث الإنساني برمته. كل ذلك تستدعيه ذاكرة الشاعر، وفق المواقف التي تقتضيها طبيعة التجربة، فتفرزه في ثنايا القصيدة في تشكلات: وجدانية، وإبداعية، فردية، وعامة.

هذه الذاكرة الماضوية في تشكلاتها النصية تتقاطع حينًا وتتباعد أحيانًا أخرى في سبيل إنتاج الدلالة المرجوة في قصيدة الحداثة العربية المعاصرة، ولعل ذلك نابع من كون ذاكرة قصيدة الحداثة ذاكرة متنوعة، متعددة المرجعيات؛ حيث لا تقف عند حدود ذاكرة القصيدة الإحيائية التي تتكئ، في الغالب، على النص الشعري العربي القديم، بل تستفيد منه وتتمدد في التراث الشعبي والأسطوري، وفي النص الديني والفلسفي والصوفي؛ دالة بذلك على تنوع مصادرها وثقافاتها وامتدادها في أعماق الفكر الإنساني (الزغلول، 2018، ص 13).

ويرجع اختيارنا لقصيدة الحداثة المعاصرة في اليمن، لما تتسم به من ذاكرة منفتحة على ثقافات مختلفة ومرجعيات إنسانية يعد التاريخ أبرزها، إضافة إلى كون تلك الذاكرة، رغم مرجعياتها الماضوية، مفتوحة على الحلم؛ حيث تنفتح نفسية الشاعر، في سبيل مساعيها الحثيثة لتغيير واقعها، على الأمل، وتستند في سبيل فتح آفاق فضاءاتها المغلقة على تاريخ الأمة هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فإن الحضور اللافت للذاكرة التاريخية لدى شعراء الحداثة في اليمن دفع الدراسة إلى محاولة البحث عن سبل توظيفها في نتاجاتهم الإبداعية، ومحاولة استكشاف الدلالات التي تبعثها في قوام القصيدة، وما يمكن أن توحي به من مواقف الشعراء تجاه ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، بوصف ذاكرة الشاعر التاريخية مرآة لمواقفهم تلك، وانعكاساً لإحساسهم بواقعهم.

ولعله لا يخفى على متصفح النتاج الإبداعي لدى شعراء قصيدة الحداثة في اليمن ما تتسم به من حضور ثري للذاكرة المرتبطة بمخيلة متطلعة وحالمة؛ ويعود ذلك إلى أسباب عديدة لعل أبرزها نابع من حالة الانكسار العربي الذي رافق الأمة خلال العصر الحديث والمعاصر، وطبيعة الحال المتردية التي يعايشها الشاعر اليمني في وطنه ويعاد إنتاجها باستمرار. كل هذا استدعى الشاعر للرجوع بالذاكرة إلى ماضيه ينقب فيه فيستحضره ليتذكر أمجاده حينًا، ويحله محل حاضره حينًا آخر، ويمده باتجاه المستقبل أحيانًا أخرى.

إن دراسة ذاكرة القصيدة في نتاج شعراء اليمن يحتاج إلى وقفة مطولة تسبر أغوارها؛ لتعدد مداخلها، واختلاف بواعثها، وتنوع تشكلاتها في قوام النص الإبداعي، ونظرًا لضيق هذا الحيز البحثي فسوف نسعى إلى وصف أبرز تشكلات

الذاكرة التاريخية في القصيدة وتحليلها واستكشاف بنيتها الجمالية عبر الاستعانة بمنهج التحليل الفني، مع الاستفادة من أصداء مناهج أخرى كالمنهج السيميائي، والنفسي، بما يخدم استنطاق أبعاد النص العميقة، وتلمس مصادرها وطرق استجلابها وتوظيفها في نتاج شعر الحداثة، مسلطين الضوء في ثنايا كل ذلك على موقف الشاعر كلما تسنى لنا ذلك، بوصفه لسان أمته، تجاه ماضيه وحاضره ومستقبله، وبوصف تلك المرتكزات التاريخية التي يستند عليها تكشف عن موقفه ذاك، وتطلعاته في المستقبل.

ونظرًا لما يحظى به التاريخ من حضور واسع لدى شعراء الحداثة في اليمن فسنكتفي بالوقوف على نتاج الشاعرين عبدالله البردوني وعبدالعزيز المقالح بوصفهما يمثلان أبرز شعراء القصيدة البيتية وقصيدة الشعر الحر في اليمن على التوالي، كما يعدان من أبرز شعراء اليمن اتكاءً على الذاكرة واستدعاءً للتاريخ في شعرهما.

وقد قُسمت الدراسة إلى مقدمة، ومدخل، أوجزنا الحديث فيه عن أهمية الموروث التاريخي في تشكيل ذاكرة قصيدة الحداثة، وجاء متن البحث مكوناً من مبحثين، يتناول الأول حضور الذاكرة التاريخية في عناوين الدواوين والقصائد الشعرية، ويدرس الثاني مضامين حضورها في المتون النصية، من خلال انفتاحها على الحلم، والواقع، بالوقوف على ما تثيره في لوحة الواقع من أسى وانكسار، ودعوات ثائرة ومتحفزة إلى التغيير.

التاريخ ذاكرة قصيدة الحداثة:

يتسم الشعر بأنه فضاء مفتوح يصدر فيه الشعراء عن رؤية تستمد قوتها من مخزون ثقافاتهم وثراء مخيلاتهم وشموخ تطلعاتهم وعمق رؤاهم الخالقة لعوالمهم الشعرية وفضاءاتها القصية، وتختلف قدرات شعراء الحداثة وتتعدد مذاهبهم وآلياتهم في رسم عوالمهم، غير أنهم لا يختلفون في كون قصيدة الحداثة لديهم تستند إلى مرجعيات وسمات تكاد تكون مشتركة، رغم تنوعها، في صوغهم لقصائدهم وتخليق عوالمهم التي يستمد بعضها فضاءاته من مكتنزات الذاكرة التي كُتب لها أن ترتبط بالشعر ارتباطًا وثيقًا، إذ تمد الشاعر "وتزوده بمواده الأولية الأساسية التي يقوم عليها شعره بما حفظته له من أحداث ووقائع، وشخصيات وصور، وأصوات وحركات وألوان وغير ذلك، وكأنها مستودع آمن يحفظ فيه ودائعه. والشاعر بالمقابل يحوّل هذه الذاكرة إلى إبداع شعري حيّ، فيخرجها إلى الوجود؛ ليضمن لها الاستمرار والحياة بعد أن كانت غائرة في بحر النسيان"(حالو، 2023، ص 596).

ويُعد التاريخ من أهم مرتكزات الشعر الذي تبعثه الذاكرة وتطبع به القصيدة العربية عمومًا، وقد تعمق حضور الذاكرة التاريخية في قصيدة الحداثة المعاصرة، فاتخذت طابعًا متفردًا وثريًا غير قار، إذ أتيح لشعراء الحداثة حرية العودة بالذاكرة إلى الماضي والانتفاع منه بما يحقق رؤاهم وتطلعاتهم، محلقين باللغة في سماء الماضي والتاريخ، والحقيقة والمتخيل؛ ليصبغوا اللغة بدلالات تجدد الماضي وتخرجه من عباءة التاريخ إلى واقع ملموس يحدث في المتلقي صدمة تدفعه إلى التمرد عليها ثم الرجوع إليها (زغطان، 1999، ص25) متمعنًا فيها ومتفحصًا أغوار دلالاتها؛ لكي يقدم "لغة تداخلت فيها الأبعاد الزمانية والمكانية، فانتقلت الأحداث على مستوى البناء بين الماضي والحاضر والمستقبل مثلما تنتقل بين أماكن وفضاءات متعددة تذكرنا بالماضي وأحداثه وتجليات تلك الأحداث على الواقع المعاصر" (العزيزة، 2009، ص 100).

اتسم نتاج كبار رواد الحداثة الشعرية في اليمن ممثلين بالبردوني والمقالح بذاكرة ثرية، لا تكاد تغيب هنا حتى تظهر هناك، فالمتصفح لنتاجهما الإبداعي يلمس توهج نشاطها وتمدد حضورها، بحيث لم تغب عن فضاءات المنتج الإبداعي المتمثل في عتبات الدواوين وعتبات القصائد ومتونها النصية، فقد سخرا نصيبًا وافرًا من ذاكرتهما الشعرية لاستدعاء صفحات مهمة من صفحات التاريخ اليمني والعربي والإسلامي، واستعادة ما فيه من أحداث وشخصيات، وتسليط الضوء

على أبرز قضاياه حينًا، أو نبش بعض خفاياه أحيانًا أخرى، في محاولة منهما إلى إحيائه، وتوظيفه في بنية القصيدة، بوصفه حدثًا قائمًا غير منقطعٍ، وسلوكًا راسخًا متجددًا ومتماهيًا في تشكيلة الحاضر، بصورة يصبح معها الحديث عن التاريخ إحياء للفعل الإنساني الماضوي وإعادة تجسيده في بنية الحاضر بشخوصه وأحداثه ومواطنه، مع إذابة شيء من متعلقات الزمن ومفارقاته حتى يتسنى لهما استضافة حمولات الدلالة المتأرجحة بين ما كان وما هو كائن.

تعددت صور استدعاء ذاكرة شعراء الحداثة في اليمن للتاريخ في متخيل القصيدة، تجلى ذلك بأسلوب أسهم في إثراء دلالات المنجز الشعري الحداثي، وفرض بصمته وتأثيره، بما يتصف به من تنوع، وما يضفيه على النص من ترابط يسهم في تمتين بنية القصيدة وتماسكها. ونظرًا لما يتسم به هذا التوظيف الشعري من ثراء فسوف نقف، في هذا الحيز البحثي، على ما مارسته الذاكرة من لعبة الحضور والتجلي في عتبات الدواوين والقصائد الشعرية، ومتونها النصية؛ هادفين، بالوقوف على بعض الاختيارات، إلى رسم خطوط بارزة لملامح تجلي الذاكرة في لوحة المشهد الشعري لدى شعراء الحداثة في اليمن ممثلين بالبردوني والمقالح.

الذاكرة عتبة للدواوين والقصائد الشعرية:

تفتحت منجزات الشعرية في العصر الحديث على مذاهب إبداعية متنوعة، منها ما يعمل على تكثيف دلالات المنتج الإبداعي واختزال إيحاءاته، على اتساعها، في بنية نصية قصيرة تتصف بكثافتها وتوهجها وإشعاعها، ويتمثل ذلك فيما ابتكرته من عناوين نصية، وظفتها بوصفها عناوين للدواوين والقصائد. وتتصف هذه البنيات النصية الموجزة في هيئة وضعها المكاني وبعدها الدلالي، بكونها عتبات ومداخل تحفز وعي المتلقي لاستشراف دلالات المنجز الشعري الكامن في عمق النص، وتعرف بأنها "مجموعة من العلامات اللسانية التي يمكن أن تدرج على رأس نص؛ لتحدده، وتدل على محتواه، وتغري الجمهور المقصود بالقراءة" (الحداد، 2009، ص 99).

وقد استثمرت ذاكرة الشعراء هذه العتبات النصية، فعملت على اجترار موروثها ووظفت بعض محطاته في صورة أيقونية توحي بالدلالة، وتشع بكثافتها، وتفتح باب التأويل أمام المتلقي؛ لاستقراء خفايا المنجز الشعري من عتباته، وتفسح المجال أمام مخيلة المتلقي؛ لإنتاج نص معادل للنص المتخفي وراء تلك العتبة قبل تلقيه، كما أنها تسهم في توجيه إدراكه نحو خطوط إيحائية مستمدة من البواعث المكتنزة في مكنون الأيقونة التاريخية المتجسدة في عتبات تلك الدواوين والقصائد، مستفيدة، في كل ذلك، مما يتصف به العنوان من كونه المدخل الأول الذي يوجه فعل القراءة؛ لما يحمله من أبعادٍ دلالية وتأويلية متعددة (حيدرة، وفرج، 2025، ص 35) ومفتوحة.

يوضح تصفح عتبات دواوين البردوني والمقالح وقصائدهما الشعرية الواردة في ثنايا تلك الدواوين، عدم إغفالهما ما تكتنزه الذاكرة من أيقونات تاريخية، تخيراها ووضعاها في مفتتح تلك الدواوين والقصائد بوصفها بنيات نصية وعناوين دالة وملهمة في آن واحد.

وما دمنا بصدد الحديث عن تلك العتبات فسوف نقف عند بعضها؛ للنظر في أسلوب توظيف موروث الذاكرة في بنيات تلك العتبات، واستقراء بعض إشعاعاتها الإيحائية وبواعثها الجمالية المكتنزة في فاتحة المنجز الشعري.

إن الوقوف على عتبات الدواوين يشي باستثمار شعراء الدراسة بواعث الذاكرة في مستويين أساسيين، أولهما يتجلى فيه التاريخي ببعده الماضوي صريحًا بينًا، وقد جاء بالصورة التي نجدها في عتبات دواوين: (جوّاب العصور(البردوني، 2002: 1397/2)، رجعة الحكيم ابن زايد(البردوني، 2002: 1583/2)، رسالة إلى سيف بن ذي يزن(المقالح، 2004: 65/3)، هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي(المقالح، 2004: 5/3)، عودة وضاح اليمن(المقالح، 2004: 633/2)، الكتابة بسيف

الثائر علي بن الفضل (المقالح، 2004: 543/2)، ويتمثل ثانيهما فيما نلمسه من ظلال الدلالة المستوحاة من التاريخي، فالقارئ يلمس قبساً من ذلك الإشعاع في عتبات دواوين: (من أرض بلقيس (البردوني، 2002، ص 53)، لعيني أم بلقيس (البردوني، 2002: 577/1) ، مأرب يتكلم (المقالح، 2004: 207/3)، بلقيس وقصائد لمياه الأحزان (المقالح، 2004: 17/1).

فالنظر في الظلال الإيحائية لعتبات دواوين المجموعة الأولى، من منظور جمعي، يشي برغبة المخيلة الشعرية في استثمار الذاكرة؛ لبث ظلال الماضي وتجسيد صورة انعكاسه في لوحة الحاضر، بوساطة بث روح الحياة والتواصل مع نخبة من أعلامه البارزين، وتتجسد عملية التواصل عبر استجلاب شخصيات تاريخية أو المثول بين يديها أو في ظلال مناقبها ومآثرها الخالدة.

ويأتي تركيز ذاكرة الشعر على الشخصية التاريخية ووضعها في بنية عناوين الدواوين؛ بهدف بث روابط التواصل مع الماضي ومحاورته والقياس إليه، ومحاولة بث روح التأثير في بنية الحاضر عبر تمثل بعض مآثر شخصياته في عتبات تلك الدواوين.

ومع تجلي شخصيات الذاكرة المستجلبة من الماضي في عتبات تلك الدواوين نلمس غياب شخصية (الجوّاب) الذي يقطع خط الزمن منتقلًا بين عصوره، ولعل هذا الإبهام، المتمثل في عدم التعريف بهوية تلك الشخصية، نابع من رغبة الشاعر في وضع المتلقي أمام صورة المتغير عبر رحلة الجوّاب، كما أنه يكشف عن رغبة الذات في استكشاف التاريخي ووضعه في مواجهة مع الزمن، عبر التأشير على ملامح الرسوخ والتحول، ووضعهما، في نهاية المطاف، في مواجهة مباشرة مع الحاضر، مؤشرًا، من خلال كل ذلك، إلى ما يثيره ذلك الحاضر في النفس من إحساس بالمرارة، وأن تلك الملامح المتوارثة والراسخة عبر الزمن ما هي إلا أيقونات حفرت بصمتها في بنية الواقع بفعل الثقافة والسلوك المتأصل الذي يصعب الخلاص منه.

وتأتي عتبات دواوين المجموعة الثانية مكتنزة بدلالة المكان (الوطن)، غير أنها تشي بحمولاتها التاريخية المكتنزة بشموخ شخوصها وعظم سلطانهم. ويلاحظ أنها جميعًا تختزل الوطن الحاضر في لحظة تاريخية بعينها (بلقيس وعرشها في مأرب)، اللذين اكتسبا سمة الخلود في وجدان شعراء الدراسة، ونتيجة لذلك تجسد الوطن المعاصر، في عتبة ديوان (مأرب يتكلم) بهيئة تاريخية مأربية، وتجلى حلم الحضارة المغيبة، ودعوات الطموح والاستنهاض، في صوت الحضارة الآتي من أعماق التاريخ، كما اختزل الوطن حضوره، في عتبات بقية دواوين المجموعة الثانية، في بلقيس التاريخ، واستنسخ مسماه من اسمها. هذا الاجترار للذاكرة التاريخية في بنية عتبات الدواوين، يبين حالة الانتماء، لدى شعراء الدراسة، التي اختزلت الوطن في حضارة مأرب دون غيرها من الحضارات التاريخية الخالدة.

البحث عن دور الذاكرة في تخليق عتبات القصائد، بوساطة استحضارها لمكنونها الماضوي، يشير إلى ثراء حضور التاريخي في بنية عتبات القصائد، وقد توزع ذلك الحضور بين استدعاء الذاكرة للشخصية التاريخية الواقعية والأسطورية، والقيم الحضارية والاجتماعية، عبر الوقوف على أطلال عصر من عصور الماضي أو أماكنه المرتبطة بتاريخ ازدهار المجتمعات العربية والإسلامية وانكساراتها، وتوظيف كل ذلك من منظور يستشعر خلود الماضي في نفسية الشخصية المعاصرة؛ الأمر الذي دفعها إلى تمجيده حينًا، ورصد صور التراجع المعاصر أحيانًا أخرى، عبر رسم ملامح انعكاس ملامحها في مرآة الماضي.

استحوذ حضور الشخصية التاريخية، في عتبة القصائد، على جل اهتمام ذاكرة الشعر، مقارنة مع بقية المحاور التاريخية الأخرى، متمشيًا في ذلك مع سيادة حضور الشخصية في عتبات الدواوين، ولعل ذلك نابع من كون الشخصية هي محور الحدث، فهي القوة المحركة للأحداث والوقائع، وعبرها تتحقق فاعلية التأثير، ويُنشد بها فعل التغيير، وعليها يقع فعل

القمع والكبت والإقصاء، ومن خلال فعل الشخصية والفعل الواقع عليها يكتسب المكان والزمان صفات التحضر أو التراجع، ويكتسب المجتمع قيمه الخالدة.

ولعل أثر فعل الشخصية على العصر والمكان هو الذي جعلها أقرب إلى ذاكرة الشاعر اليمني المتغنية بالإرث الحضاري، والمتأسفة على ما آل إليه واقعها، والمتطلعة إلى التغيير، والمستسلمة لسوط القمع في آن واحد؛ حيث أسهم واقع الحياة الاجتماعي والسياسي للمجتمع اليمني الحديث في توجيه الوعي نحو البحث عن الشخصية الملهمة عند كل تطلع للمستقبل أو إحساس برغبة تغيير الواقع، وحين عجز ذلك الوعي عن إيجادها في واقعه عاد إلى الماضي ينقب عنها في ركام الذاكرة، فكان من نتاج ذلك، لدى شعراء الدراسة، أن تصدرت تلك الشخصيات الثائرة والملهمة والفاعلة عناوين بعض القصائد، في طريق البحث عن سبل الخلاص من أسر الحاضر، واستعادة مآثر الماضي وحسناته.

ومن تلك الشخصيات الواردة في عتبات القصائد نجد شخصية الثائر الساعي إلى تغيير الواقع برفضه والثورة عليه، وقد تجسد ذلك الحضور، في عتبات بعض القصائد، في هيئة جماعية بالصورة التي نجدها في عتبة قصيدة: (محاولة للكتابة بدم الخوارج(المقالح، 2004: 516/2))، أو بهيئة مفردة في عتبة: (الكتابة بسيف الثائر علي بن الفضل(المقالح، 2004: 580/2))، ومن تلك الشخصيات التي تصدرت عتبات القصائد، الشخصية الحكيمة والمتسلحة بالوعي، في عتبة قصيدة: (رجعة الحكيم بن زايد(البردوني، 2002: 1590/2))، والشخصية المرشدة والمصلحة في عتبة: (مقتطفات من خطاب نوح بعد الطوفان) (المقالح، 2004: 265/3).

وتعد شخصية الداعي إلى الثورة والمرشد إلى الإصلاح والتغيير أكثر الشخصيات قربًا من نفسية الشاعر (المقالح) إذ اتخذهما قناعًا عبر بوساطتهما عن أفكاره ورغباته وتطلعاته في النصف الأول من حياته الشعرية، قبل أن يطمئن إلى السكينة واستدعاء الشخصيات التي ارتبطت به بعلاقات خاصة ناجمة عن التشابه في الميول والأفكار، دون أن يثيرها محرك إبداعي عميق الدلالة، إلى درجة أنه أفرد ديوانًا خاصًا بعنوان (الأصدقاء) (المقالح، 2004: 243/1 – 480)، خص فيه عددًا غير قليل من الشعراء والأدباء بقصائد مستقلة، ولم يحظ فيه القدماء إلا بالقليل منها، ولعل ذلك الديوان جاء تعويضًا عن هجر الشاعر لميادين الشعر الثائرة والمتفاعلة مع قضايا المجتمع الشائكة، وركونه إلى حياة الدعة والسكينة والاستقرار.

إذا كانت عتبات بعض القصائد قد حفلت باستدعاء بعض الشخصيات التاريخية الثائرة والفاعلة والمؤثرة بصورة إيجابية في مجتمعاتها، فإن خيال الشعراء كثيرًا ما يبحث عن مشجب يعلق عليه سبب انتكاسة المجتمع عند كل هاجس للتغيير أو محاولة فعلية غير ناجحة لذلك، كما هو في عتبات قصائد: (رسالة إلى عمرو بن مزيقيا(المقالح، 2004: 305/3)، عودة وضّاح اليمن(المقالح، 2004: 637/2))، إذ جعل التاريخي المتجسد في أفعال هاتين الشخصيتين سببًا لتراجع الحاضر وتخلفه.

هكذا تعددت صفات الشخصيات التي وضعها الشاعر في عتبات قصائده، وتباينت مكانتها الاجتماعية والثقافية، واختلفت عصورها، فكانت منها الشخصية الاجتماعية والقيادية المتخاذلة، التي وظفت في عتبة القصيدة وتضاعيفها؛ بهدف تحميلها إرث الماضي المتغلغل في جسد الحاضر بالصورة التي وجدناها في عتبة قصيدة (رسالة إلى عمر بن مزيقيا)، التي لم تكتف ذاكرة الشاعر، في ثنايا القصيدة، بوصف عام لهذه الشخصية وما نسجه خيال التاريخ عن فعلها، بل خاطبها خطاب الحاضر البعيد، فبعث إليها رسالة يحاكمها فيها ويحملها صراحة كل مساوئ الحاضر وخذلانه والتاريخ على امتداده، ولعل ذلك التحامل نابع من إدراك الشاعر بأن الشخصية القيادية هي سبب تراجع المجتمع اليمني وتخلفه في عصوره المختلفة.

ومن الشخصيات التي وضعتها ذاكرة الشعر عتبة لقصائدها: الشخصية المثقفة الساعية وراء مصالحها دون الالتفات إلى واقع مجتمعها، كما هو في عتبة قصيدة: (عودة وضّاح اليمن) المذكورة سابقًا، التي حاكم فيها الشاعر تلك الشخصية، واتهمها بالهروب، وأشار إلى عدم جدوى عودتها المفترضة؛ لتخاذلها وهروبها في اللحظة التاريخية التي كانت تستدعي حضورها وثباتها.

تعد شخصية الشاعر، المستجلبة من التاريخ، أكثر الشخصيات حضورًا في عتبات القصائد، من ذلك ما نجده في عتبات قصائد: (شاعر الكأس والرشيد(البردوني، 2002: 341/1)، أبو تمام وعروبة اليوم(البردوني، 2002: 624/1)، وردة من دم المتنبي(البردوني، 2002: 965/2)، تحولات يزيد بن مفرّغ الحميري(البردوني، 2002: 1080/2)، مرثية عصرية لمالك بن الريب (المقالح، 2004: 412/2)، (ذو نواس)... البحر والاغتيال (المقالح، 2004: 477/2)، من تداعيات الليلة الأخيرة للمتنبي في مصر (المقالح، 2004: 529/2)، تقاسيم على قيثارة مالك بن الريب (المقالح، 2004: 718/2).

لعل هذا الثراء في استدعاء شخصيات الشعراء التاريخية يعود إلى كونها أكثر الشخصيات قربًا إلى نفسية الشعراء وثقافاتهم، كما أنها (شخصية الشاعر) تتسم بكثير من صفات الشخصيات الأخرى؛ فهي شخصية ثائرة، ناقدة، مصلحة ومثقفة، كما أنها تُعد من أكثر الشخصيات تعرضا للكبت والقمع والاضطهاد، وهذا أسهم في استحضار كثير منها في مواقف معبرة عن تلك الحالات والمواقف، بالصورة التي نلمس دلالاتها في معظم عتبات القصائد السابقة؛ فمن دلالات العتبات السابقة نلمس، في تجارب البردوني، ندبًا للواقع المتخلف، والحافل بالقمع والتكتيم، كما نلمس أن المقالح، في تجاربه الممتدة حتى النصف الأول من ثمانينيات القرن العشرين، يرى في شخصيات كثير من الشعراء المضطهدة والمغيبة والمحرومة (المتجسدة في عتبات قصائده) نسخة لذاته، ولعل ذلك يعود إلى صعوبة الحياة التي عاشها وعايشها في بدايات حياته، وإحساسه بانغلاق الأفق أمام طموحه قبيل تخرجه من الجامعة.

تحفل عتبات قصائد أخرى بشخصيات تاريخية مغايرة، منها: الشخصية التاريخية الدينية؛ حيث لم تغب عن ذاكرة الشعر وعتبات نصوصه الإبداعية، من ذلك ما نجده في عتبات: (مقتطفات من خطاب نوح بعد الطوفان، من عذابات محمد (المقالح، 2004: 326/3)، الرسول (المقالح، 2004: 598/3)، من حوليّات يوسف في السجن (المقالح، 2004: 647/2). ويعود ذلك الحضور إلى ما للدين ومناسباته الخالدة وشخصياته من تأثير ورسوخ في وجدان الشاعر العربي ومحيطه، كما أن التاريخ خلّد أثر تلك الشخصيات بما رسخته من مآثر خالدة غيرت وجه التاريخ. إضافة إلى كل ذلك فقد أفاد الشعراء من بعض أخبار تلك الشخصيات الدينية الخالدة، وتجاربها، وما واجهته من صعوبات وتعقيدات ناجمة عن تعقيدات واقع الحياة الاجتماعية التي عايشتها، بإسقاطها على واقع الحياة المعاصرة من بعض زواياها، بحيث حفظوا لتلك الشخصيات الخالدة خصوصيتها الدينية المقدسة، وأفادوا من تجاربها الاجتماعية المماثلة لوقائع حياتهم المعاصرة بالصورة التي توهموها وتمثلوها في شعرهم.

لا تقف ذاكرة الشاعر عند استدعاء الشخصية الموروثة الواقعية، بل تعدته إلى الشخصية الأسطورية أو المرتبطة بأحداث وأخبار أسطورية، ووظفتها في بنية عتبات القصائد، غير أن ذلك الحضور كان محدودًا، فجاء تابعًا لبقية الشخصيات التي استدعتها الذاكرة الشعرية؛ حيث لا نجد غير عدد محدود من عتبات القصائد المرتبطة بشخصيات أسطورية: (سندباد يمني في مقعد التحقيق(البردوني، 2002: 1/ 765)، شهرزاد في صنعاء (المقالح، 2004: 534/3)، أخت ميدوزا (المقالح، 2004: 166/3)، بما فيها من إرث إنساني شامل: عربي، وشرقي مترجم إلى العربية، وغربي، كما لم يغب عن ذاكرة الشاعر الاتكاء على الأسطورة المرتبطة بالشخصية المحلية في قصة عمرو بن مزيقيا (ابن منبه، 1347، ص273، 274).

وإذا ما بحثنا عن سبب محدودية حضور الشخصية التاريخية الأسطورية في عتبات القصائد، فيمكن إرجاعه إلى واقعية تفكير الشاعر اليمني، ومحدودية جنوحه إلى التوهم والخيال الميثولوجي، إضافة إلى حرصه على عدم الابتعاد كثيرًا عن ملامسة وعي المتلقي المحلي؛ لهذا نجده يحرص في شعره على ملامسة الواقعي، وإذا جنح إلى الاسطورة أو الخرافة فكثيرًا ما يميل إلى ربط خياله، في ثنايا قصائده، بالتفكير الشعبي البسيط، أو المتسق مع التفكير البدائي للعامة، بالصورة التي نجدها في ختام قصيدة: (عودة وضّاح اليمن)، التي سنقف عليها لاحقًا، وذلك حين يربط الشاعر حلم الخلاص بنبوءة عراف وادي الجماجم، وهو توظيف غير مرتبط بخرافة موروثة بل بسياق خرافي من صنيع خيال الشاعر وبواعثه الوجدانية، ولعل ذلك نابع عن رغبة داخلية تسعى لإبقاء جذوة حلم الخلاص مشتعلة في الذات، ومحاولة كبح جماح الإحساس بصعوبة ذلك على مستوى الواقع.

البحث عن استحضار الذاكرة للمكان والزمان وقيمهما الحضارية والاجتماعية الماضوية وتوظيفهما في عتبات القصائد يكشف عن محدودية حضورهما بمعزل عن الشخصية، ويرجع ذلك، كما ذكرنا سابقًا، إلى كون الشخصية هي مصدر التأثير والتغيير إيجابًا وسلبًا، من منظور الشاعر، إضافة إلى ترسخ مبدأ انتظار المخلص الملهم، وتراجع الإحساس بمبدأ التطور الطبيعي المطرد للمجتمع، وقد جاء توظيف الذاكرة للمكان في عتبات القصائد بوصفه رمزًا للتطور الحضاري في عتبات القصائد الآتية: (ورقة من كتاب الأندلس (المقالح، 2004: 306/2)، قراءة في كتاب غمدان.. البحر والمطر) (المقالح، 2004: 618/2)، وجاء التوظيف السلبي في عتبات: (الشمس لا تمر بغرناطة (المقالح، 2004: 642/2)، مأرب.. الفأر والإنسان) (المقالح، 2004: 330/3)، ولعل توظيف الشاعر للمكان التاريخي في عتبات القصائد بصورها السلبية والإيجابية صادر عن طبيعة إحساسه بمحيطه؛ إذ تعمد ذاكرته، بفعل التأثير الوجداني، إلى استدعاء صور المكان الماضوي المعادل لتلك الصور الوجدانية الكامنة في أعماقه لحظة الخلق الشعري.

لم تقف ذاكرة الشعر عند استحضار شخصيات الماضي ومواطنه، بل جاوزتها إلى الوقوف على العصر بوصفه فاتحة للنور وبشرى لعصر نبوي روحاني، كما هو في عتبتي: (فجر النبوة(البردوني، 2002: 150/1)، بشرى النبوة(البردوني، 2002: 331/1) للبردوني، فإذا كان المقالح في العتبات التي ذكرناها سابقًا (عذابات محمد، الرسول) يركز على شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمناقبها ورسالتها وما واجهته من مصاعب، فإن البردوني في (فجر النبوة، بشرى النبوة) يوجه الذاكرة إلى التركيز على تحول العصر إلى النور، والبشارات المفتوحة على الخير والروحانية، كما وظفت الذاكرة الشعرية العصر بوصفه رمزًا للحضارة في قصيدتي: (الوجه السبئي وبزوغه الجديد) (البردوني، 2002: 809/1)، وعبرت بوساطته، بأسلوب رمزيٍّ، في عتبة قصيدة: (تميمية.. تبحث عن بني تميم) (البردوني، 2002: 1455/2)، عن تراجع القيم وإحساس الإنسان بالتيه والغربة في واقعه ووطنه وبين أفراد مجتمعه؛ ما دفع الذاكرة إلى الغوص في أعماق التاريخ؛ للبحث عن تلك القيم التي تحلى بها المجتمع في العصور القديمة، ومقابلتها بقيم المجتمعات المعاصرة؛ بهدف إبراز مظاهر تفكك القيم المعاصرة وتعريتها.

هكذا تجلت ذاكرة الشعر، في عتبات دواوين شعراء الدراسة وقصائدها؛ حيث وظفت التاريخي، في الغالب، لرصد ملامح الواقع، وبث صورة انعكاسه في مخيلة الشاعر، كما كشفت عن خفايا الذات الشاعرة وموقفها تجاه ماضيها وحاضرها، وتطلعاتها، فرسمت صورة واضحة لجدل الذات والواقع، وطموح الفرد وانكسار المجتمع، وقد جاءت حمولاتها التاريخية، في بنية العتبة، بوصفها أيقونات موحية بعمق الدلالة وكثافتها، ومكتنزة بجماليات الفن وبواعثه المشعة.

الذاكرة في نسيج القصيدة:

استأثرت مخيلة شعراء الحداثة بحرية توظيفها للموروث التاريخي؛ فعلى الرغم من أن تراث الأمم يعد أساسًا من أسس حياتها بوصفه يمثل الذاكرة الفاعلة التي تميزها على الصعيد الجمعي وتجعلها أغلى ممتلكات أبنائها؛ الأمر الذي جعل صدور مخيلة الشعراء عن حس تراثي ضرورة أولى، ومقومًا أساسيًا؛ لحماية الحركة الأدبية وضمان سلامة مسارها (التطاوي، 1998، ص 13) عبر العصور، إلا أننا نلمس تميز شعراء الحداثة في توظيفهم للموروث التاريخي كمًا ونوعًا؛ حيث نلمس أن مخيلتهم الشعرية لا تتكئ على المادة التاريخية كي توظفها في سياقها الدلالي المألوف وبعدها الموضوعي الموروث، بل عمدوا إلى الانتفاع من التاريخ بوصفه مادة ملهمة تسهم في إعادة تشكيل إحساسهم بحاضرهم، وإعادة رسم ملامحه في متن القصيدة، مستمدين منه، في ثنايا نسجهم قصائدهم، خطوطه وألوانه الرئيسة، ومفسحين لريشة خيالهم، وفكرهم فضاء اللوحة النصية؛ لتشكيل جديد يتكئ على الذاكرة، ويتيح لها حرية التصرف في جزئيات تلك المادة وتقاسيمها؛ لإخراجها في صورة من صور الإدراك الحسي الدال على عمق الدلالة، التي يشي بها ذلك المتغير الإبداعي بين المادة التاريخية، في سياقها الماضوي، وسياقها الفني، والإبداعي الوليد.

إن اجترار الذاكرة الإبداعية للمادة التاريخية منح القصيدة مادة ثرية في نسج موضوعها وتمتين بنيتها وتشكيل آفقها الدلالي والإبداعي؛ حيث اتسم هذا الحضور بتنوع موضوعي، وثراء كمي أسهم في حياكة نسيج عدد غير قليل من قصائد البردوني والمقالح، وعمل على تمتين بنيتها ومنحها تماسكًا نصيًا رصينًا؛ ويرجع ذلك إلى ما يتسم به أسلوب توظيف المخيلة الشعرية لمادتها المستجلبة عبر التذكر من ميل إلى اجترار الذكريات في صورة من صور التوالي السردي الواقعي والمتخيل، وما يتخلل ذلك من وصف، وتطلع، وخلق حزمة من الثنائيات كالمفارقات، والمقابلات في ثنايا البنية النصية، أو بين المادة التاريخية وتوظيفها الفني في القصيدة، وقد أضفى كل ذلك على النص بعدًا فنيًا وجماليًا أسهم في تجديد بنيته وتحديث أبعاده الدلالية، وأعاد تشكيل آفاقه الفنية والإبداعية من منظور الحداثة الشعرية المعاصرة.

وقد ذهبت مخيلة الشعراء مذاهب عديدة في توظيفها لمخزون الذاكرة التاريخية في النتاج الإبداعي؛ حيث وظفه الشعراء بهدف الاحتفاء به، أو مساءلته وتحميله أرث واقعهم المعيش، أو التأسف عليه وإضفاء اللائمة عليه وتعرية تراجع الحاضر بالقياس إليه، أو مد الماضي في فضاءات من الزمن بوصفه وسيلة من وسائلهم المتحفزة والمنكسرة لمساءلة الواقع ومحاولة تغييره، وخلق مستقبل مغاير لحالة التراجع والهوان. وبهذا فإن الذاكرة تتشكل في متن القصيدة بوصفها ذاكرة متأسية منكسرة، أو ثائرة متطلعة إلى التغيير، أو حالمة بغد مشرق منتزع من ماضي الأمة وحضارتها المغيبة.

أولًا: الذاكرة المنفتحة على الو اقع

الشعر صدى النفس ووهج أفكارها وهواجسها، يستمد من بواعث الحياة ومخزون الذاكرة وتطلعات الذات خطوط عوالمه المتخيلة، وتتصف تلك العوالم بأنها انبثاقة مشعة لما تشكل في النفس من بواعث تلاشي الحدود وانصهار فضاءات عوالم التجربة في مصهر الشعرية المتجدد. وقد سجَّلت اختيارات الذاكرة حضورًا ملحوظًا في بنية قصيدة الحداثة العربية، وأحدثت ثورة إبداعية أسهمت في تحديثها من نواحٍ عديدة: تقنية وبنائية، كما أسهمت في توسيع فضاءات الدلالة عبر تمكين القصيدة من تحديث نظمها وفتح مساحاتها التي لم تكن قادرة على استضافة الذاكرة وتوطين حضورها بالصورة التي نجدها في قصيدة الحداثة.

يُعد الواقع المعيش أكثر ما يؤرق شعراء الحداثة المعاصرين، ويحرك خيالهم، ويمدهم بصورهم، ويحفزهم على ابتكار أساليبهم ووسائلهم التعبيرية الدالة عن مكنون أفكارهم وخيالاتهم، كما يُعد واقع الحياة المعاصرة الموجه الفاعل

لطبيعة توظيف الذاكرة في القصيدة وتخليق موضوعاتها... وبما أن واقع الحياة المعاصرة في اليمن غارق في بؤرة من التراجع والتخلف والانكسار، فقد كانت الذاكرة وسيلة ندبه وتعبيرًا عن انكسار الذات الإنسانية المقهورة حينًا، وأداة تحفيز لوعي الجماهير للثورة عليه أحيانًا أخرى، مستمدة من إرثها الراسخ في الذاكرة الجمعية للمجتمع قوتها وحافزها إلى تغييره والتطلع في المستقبل.

الذاكرة بين الأسى والانكسار:

اتجهت اختيارات الذاكرة الشعرية لدى شعراء الحداثة العرب عامة، وشعراء الدراسة على وجه الخصوص، إلى البحث عما يلائم نفسية صاحبها، وما تغالبه من انكسار وأسى؛ نتيجة تعثر طموحها أمام تراجع واقعها المعيش وعدم قدرتها على التآلف معه.

وهي في استجلابها لمكنون الذاكرة لا ترى في الحاضر إلا كونه امتدادًا يراكم سلبيات الماضي حينًا، أو واقعًا متخلفًا لم يحفظ لنفسه شموخ الماضي، ورفعته أحيانًا أخرى؛ ولهذا فإن الذاكرة في مثل هذه التجارب الشعرية مكبلة بالحزن والأسى ومنغلقة على الماضي في توصيفها لأساها الناجم عن تراجع الواقع وتخلفه. وهي في تأسيها بالماضوي والتاريخي لا تقف عند القوالب التاريخية المماثلة لأساها؛ إذ أتاحت لها فضاءات الشعرية المتجددة مساحات واسعة للبوح عن مكنونها عبر إعادة توظيف التاريخي وفقًا لمنظور خاص تبتكره؛ لتعيد بوساطته ترتيب أدوات التاريخ وتفاصيله، بما يحقق دلالات عميقة مكتنزة بشعرية مشعة. وهي في تحديثها لقوالب التاريخي قد تفيد من ملابساته الميثولوجية والأسطورية بالصورة التي نجدها في قصيدة المقالح (رسالة إلى عمرو بن مزيقيا) التي سنقف عليها لاحقًا، كما يتحقق ذلك بطرق متعددة، لعل أكثرها شيوعًا وألفة يتمثل في تذكر أمجاد الماضي ومقارنته بواقع الأمة، في طريق ندب واقع الحال وفتح فضاءات القصيدة أمام الذات؛ للبوح بما تشعر به من انكسار وحزن وأسى.

ولعل خير ما يمثل هذا الاتجاه قصيدة (أبو تمام وعروبة اليوم) (البردوني، 2002: 624/1)، التي وضع فيها البردوني المتلقي أمام مقارنة مؤلمة بين الماضي والحاضر؛ لما تحمله تلك المقارنة من مفارقات كلية بين ما كان وما هو كائن، وبين مجد مضى يحلم به ويحلم باستعادته، وضعف يعايشه وهوان لا يمتلك القدرة على مفارقته وتخطيه أو القفز فوقه والانتصار عليه؛ فمن بين ثنايا الزمن الممتد تنشط ذاكرة الشاعر المتأسية على ما آل إليه حاضرها؛ لتضعنا أمام مفارقات وثنائيات ضدية، تتجلى أبرز ملامحها في حوارية أبي تمام والبردوني:

مــاذا جــرى.. يــا أبــا تمــام تســألني؟	**عفــوًا ســأروي.. ولا تســأل.. ومــا السَّــببُ**
يــدمى الســؤال حيــاء حــين تســأله	**كيـف احتفـت بالعـدى (حيفـا) أو (النقبُ)**
مــن ذا يلبــي؟ أمــا إصــرار معتصــم	**كــلا وأخــزى مــن (الأفشــين) مــا صُــلبوا**
اليــوم عــادت علــوج (الــرُّوم) فاتحــةً	**ومــوطنُ العَــربِ المســلوبُ والسَّــلَبُ**
مــاذا فعلنــا؟ غضـبنا كالرجــال ولــم	**نَصــدُق.. وقــد صَـدَقَ التَّنجـيمُ والكُتُـبُ**
فأطفــأت شُــهُبُ (الميــراجِ) أنجُمَنــا	**وشمسَــنا، وتحــدَّت نارَهــا الخُطــبُ**
عروبــةُ اليــومِ أخــرى لا يــنِمُّ علــى	**وجودِهــا اســمٌ ولا لــونٌ... ولا لقــبُ**
تِســعونَ ألفــاً (لعمُّوريــة) اتَّقــدوا	**وللمُنَجِّم قــالوا: إنَّنــا الشُّــهبُ**
واليــومَ تِســعونَ مليونًــا ومــا بَلغــوا	**نُضــجًا... وقــد عُصِـرَ الزيتــونُ والعنــبُ**

يسجل البردوني في هذا النص "طرفي المفارقة، التراثي، الموقف العربي المنتصر ورمزه المعتصم وجيشه، والمعاصر، الموقف العربي الراهن بما فيه من وهن واستسلام وتبعية"(مكوع، 2010، ص 185)، وفي ثناياه يؤشر على عدد من عناصر الحكم والقوة، ويقارن بينها في زمنين مختلفين: أحدهما تستجلبه الذاكرة من عصر عزة العرب والمسلمين، في عهد الخليفة العباسي المعتصم، والآخر يعيشه الشاعر بكل ما فيه من مظاهر الضعف والتراجع والاستسلام؛ حيث يؤشر على: (الحاكم، الخونة من كبار المسؤولين والقادة، العدد والعدة العسكرية)، ويقدم لنا صورة سردية مكثفة لتحول حال البلاد وأهلها بين عصرين مختلفين؛ ففي ثنايا الحوار يسرد البردوني سيلاً من المفارقات، موزعة بين ما تختزنه الذاكرة في خلفياتها التاريخية الموروثة من مظاهر العزة والسيادة، وبين ما تعايشه من صور الضعف والهوان في واقعها، فإصرار الحاكم الذي جسدته شخصية المعتصم غائب عن حكام هذا العصر، وخونة الأمة من قادته الذين فاقت خياناتهم (الأفشين) لا ينالهم سوء ولا عقاب، وجيوشنا اليوم تفوق أعداد الجيوش الإسلامية الفاتحة عمورية بأعداد كبيرة جدًا، غير أنها كثرة غير نافعة؛ فبعض مدننا العربية، اليوم، استقبلت جيوش العدو بحفاوة وسلام واستسلام، وهي الجيوش التي دحرتها الجيوش العربية قديمًا، ونكست راياتها في كل الميادين. اليوم عادت تحتل المدن والبلدان العربية وتسلبها من أهلها واحدة تلو الأخرى، ونحن نظهر الغضب بالخطابة والتصريحات ولا نصْدُق الفعل، وقد أطفأ العدو بقوته وسلاحه وعزيمته كل أمجادنا التي تشع في الذاكرة. ويخلص الشاعر، بعد عقد تلك المقارنات، إلى أن حال العرب تحول من وضعهم المشع في الذاكرة: قوة وعظمة وسيادة، إلى حال مغايرة لا تشير إلى أن عرب اليوم ينتسبون إلى عرب الماضي بأي صلة.

جاء سرد البردوني لهذا الواقع المعيش محملًا بالأسى، ومثقلًا بزفرات النفس المتحسرة والعاجزة عن التعاطي مع لغة الحوار: (**ماذا جرى... يا أبا تمام تسألني؟/ عفوًا سأروي.. ولا تسأل..**)؛ لما في الحوار من دلالة على سعة النفس وقدرتها على الأخذ والرد، والتفسير، والتعليل للقضايا والأحداث التي تثيرها أفكار المتحاورين، ونظرًا لطغيان ذلك الأسى واحتدام النفس بتلك الزفرات المحتشدة، عدلت القصيدة عن الحوار إلى القص والسرد، فاتحة المجال للنفس المنهكة للبوح بما يحتشد في مكنونها، فقطعت بذلك طريق الحوار أمام السائل الآتي من أعماق التاريخ، وكشفت، عن طريق البوح، عمق التحول بين ما تختزله الذاكرة وما يجسده الواقع المعيش، وما يفرزه، ذلك التناقض، في النفس من أثر يجعلها عاجزة عن تقبله وتفسيره.

هكذا تبرز نفسية الشاعر حالة الأسى والانكسار أمام لوحة الواقع في لحظات استجلاب الذاكرة لصفحات ناصعة من التاريخ العربي والإسلامي؛ إذ ولد الإحساس بسوداوية الواقع ذبذبات وجدانية ممغنطة تتسم بقدرتها على صهر اللوحات المتباعدة والمتباينة في مصهر الشعور المواكب للتجربة والخالق لآفاقها.

وعلى النقيض من ذلك يشعر المقالح بحالة الأسى والعجز المطلق، فيصدم المتلقي بوضعه أمام واقع مؤلم، موروث الصفات، راسخ الحضور، لا فكاك منه، نجد ذلك في قصيدة: (رسالة إلى عمرو بن مزيقيا) (المقالح، 2004: 305/3) المكونة من أربعة مقاطع، نقتطف منها أجزاء من المقطعين الأول والرابع؛ حيث يقول في المقطع الأول:

تحيَّرتُ.. ثارَ،
تهشَّمَ فوقَ الحروفِ القلمْ
إلى أينَ يكتبُ؟
أينَ مكانُكَ يا (عمرُو) بينَ الرِّمَمْ؟
وأينَ الدِّيارُ التي اخْتَرْتَهَا موطنًا لكَ
قبلَ انهيارِ الجدارِ

وقبلَ انفجارِ العَرِمْ؟
وهل لكَ قبرٌ على الأرضِ
أم لفظَتْكَ الرِّمالْ؟
لأنكَ خنتَ الترابَ
وخنتَ الرِّجالْ،
أخذْتَ نصيبَكَ منها
غداةَ الرَّحيلْ،
غداةَ شربْتَ دموعَ الضَّحايا
تسلَّمْتَ أثمانَ كلِّ النخيلْ،
أما زلتَ في كلِّ يومٍ تُمَزِّقُ حُلَّةْ
وتلبسُ حُلَّةْ،
وكلِّ مساءٍ تضاجعُ واحدةً
منْ بناتِ القبيلة،
وتشربُ يا (شَهْرَيارُ) دماءَ الجراحْ،
فلا (شَهْرَزادُ) أطلَّتْ
ولا عادَ وجهُ الصباحْ.

يثير النص مشاعر الأسى الناجم عن الإحساس بمرارة الواقع ومأساويته، وهذا الشعور لا ينبثق عن همٍّ فردي، بل يحمل همًا جمعيًا أحكم قبضته على المجتمع عامة. والشاعر، في سبيل تجسيده لهذا الواقع المؤلم، يستعين بالذاكرة، ينقب فيها عما يمكنه من حمل الدلالات المرجوة، ويتجلَّى في بنية النص بوصفه سببًا لرسوخ صور الغدر والخيانة والتراجع والشتات، فتستقر عند شخصية (عمرو بن مزيقيا) التي اختلط إرثها التاريخي بالأسطورة، ونسبت إليه حالة الشتات التي أصابت مملكة سبأ عند انهيار سد مأرب، والشاعر في توظيفه هذا استوعب التراث ووظفه في شعره بوصفه قناعاً يستتر وراء عالمه الغامض؛ للتعبير عن موقفه وواقعه المرير (بوديار، 2017، ص 116).

يفتتح الشاعر قصيدته بتوصيف حيرته مما آلت إليه حياة عمرو بن مزيقيا بعد أن غدر بقومه، مؤثرًا نفسه وأهله وماله على القيام بمسؤولياته تجاه قومه. والشاعر في حيرته تلك لا يشذ عن الحيرة المحتملة (المجسدة في الأسطورة) التي عايشها عامة الناس تجاه من خذلهم زعيمهم (عمرو)؛ حيث نسج التاريخ قصصًا لا تخلو من الخيال والنوازع الأسطورية في حديثه عنه وعن أحداث عصره، ممثلًا بما نسج من قصص عن حادثة انهيار سد مأرب (ابن منبه، 1347، ص 273، 274).

فالشاعر لا يعلم إلى أين يكتب له؛ ليثأر منه، بما سيحمّل رسالته من معانٍ، نظير ما ألحقه بأمته من ضرر متوارث؛ إذ ينسب إليه صفات القائد الخائن الذي تعمد الإضرار بقومه في سبيل مصالحه الشخصية، بالصورة التي نقلتها الأسطورة، التي تشير إلى أنه أخفى عن قومه خبر الخطر القادم، وألحق بهم الضرر المادي والاقتصادي، وتسبب في تمزقهم وشتاتهم في كل بقاع الأرض، في سبيل النجاة بنفسه والحفاظ على مصالحه الشخصية، بالرغم من كل ما كان ينعم به من جاه ونعم، بفضل ما ناله من ثقة قومه، الذين أعلوا من شأنه ونصبوه أمينًا عليهم، حتى أصابه الثراء الفاحش والسيادة الغارقة في الملذات.

وينتقل الشاعر في المقطع الأخير من القصيدة إلى تعميم صورة الشتات التي تسبب بها عمرو بن مزيقيا إثر خيانته لقومه؛ حيث يرى أن ظاهرة الشتات والتغرب والارتحال التي يعيشها اليمنيون في العصر الحديث، والتي ستستمر معهم مستقبلا، كما يقول، ناتجة عن تلك الخيانة التي احتال بها القائد على قومه وأضاع مجدهم:

لقد كنتَ يا (عمرُو)
لعنةَ أيامِنا الخاليةْ
وما زلتَ لعنةَ حاضرِنا
ثمَّ أيامِنا الآتيةْ،
إذا ما ارتحلْنا ذكرْناكَ
يا أوَّلَ الرّاحلينْ
وحينَ نفرُّ منَ اللَّيلِ
أنتَ الدَّليلُ المهينْ
وتحتَ المناجمِ عندَ ثلوجِ الشَّمالْ
رَسَمْناكَ وجهَ غرَابٍ حزينْ،
يتمتمُ كلَّ مساءٍ: تعالْ،
هنا العارُ والمالُ.. هيّا تعالَ
تعالَ
تعالْ.

جعل الشاعرُ عمرًا سببًا لشتات اليمنيين قديمًا وحديثًا ومستقبلًا، وهو في رسوخه عند هذه الدلالات السالبة وعدم الميل عنها إلى غيرها من الدلالات المغايرة، في كل مقاطع القصيدة، يوحي بما تستشعره الذات من إحباط ويأس وإحساس بصعوبة تغيير واقعها الذي يعيد تكرار شخصية عمرو بن مزيقيا، ويعاود استنساخ اللحظة التاريخية التي حملت معها انهيار حصون الدولة وشتات المجتمع. ونظرًا لعمق شعور الانكسار ورسوخ الإحساس بحالة العجز على روح الشاعر وتطلعاته، ظل خياله أسيرًا لما تدره عليه الذاكرة من دلالات مرتبطة بالشخصية التاريخية وموقفها. والشاعر، بالرغم من هذا، لا يميل إلى استحضار التاريخ لتحقيق مكاسب فنية فحسب، بل يستضيفها لحمل دلالات ناقدة لشخوص معاصرة، وسياسات وأحداث أرّقته كثيرًا، وأنهكت مجتمعه، وأغلقت كل أفق مستقبلي مغاير لتلك الصورة النمطية الموروثة بوساطة ترسيخ واقع المأساة التاريخية واستنساخها عبر الزمن.

لقد بالغ المقالح كثيرًا في تحميل الماضي أسباب تخلف الواقع المعيش؛ حيث تحاملت نفسيته، العاجزة والمنكسرة والمرتهنة لواقعها المرير، على التاريخ وقياداته، ونسبت إليهم كل سبل التمزق والتخلف والشتات المتوارث، مستندة على إرثها الثقافي ووعيها المبدع وخيالها الخلاق؛ لتبرئة ذاتها العاجزة، ومجتمعها المتخاذل والمرتهن لأطماع القائد ونزواته، وإلقاء اللائمة على التاريخ وشخوصه وأحداثه، غير أننا نلمس في هذا التوظيف المتحامل على التاريخ وشخوصه، وما ينقل عنه من مآسٍ، ندبًا للواقع ونقدًا لشخوصه وسياساتها؛ إذ جعل الشاعر من الذاكرة التاريخية وسيلته للتخفي عن أعين السلطات المعاصرة، عبر استحضار ما تدره على مخيلته الخصبة من صور وأحداث تاريخية.

ولعل ميل الشاعر إلى هذا النمط من التعبير والإيحاء نابع من نمو التفكير لدى شعراء الحداثة العرب، ونزوعهم إلى الترميز وإعادة الخلق. وقد أسهم هذا النمو الذهني في توسيع دائرة أثر الذاكرة في الزمن، بحيث تجاوز أفق المشاهد التي تم تناولها في النصين السابقين، إلى استحضار الذاكرة لأداء دلالات مغايرة يشي بعضها باستنساخ سوداوية الماضي وتخلف الحاضر في بنية المستقبل، وفي هذا النمط من التوظيف قد ينزع الشاعر، في لحظة تجلّ ناجم عن كبت الواقع، إلى استنساخ بواعثه في بنية المستقبل، وفي سبيل تحقيق ذلك ابتكر الشعراء سبلاً عديدة، منها ما يتجلى في استعانتهم بالذاكرة، عبر استحضارها للتاريخ في هيئة شخصية تاريخية يشكو لها واقع الأسى الذي وصلت إليه الأمة وانغلاق أفقها المستقبلي، ويستنسخ بوساطتها واقعه في بنية المستقبل، والشاعر، في هذا النمط من التعبير، يستشعر حالة اليأس المطبق الذي أنهك المجتمع وكبل طموحه وقيده في مأساة الماضي وأغلق عليه كل أفق مستقبلي.

الذاكرة المتحفزة - الثائرة:

لم تقف ذاكرة الشعر، في استزادتها من الماضي، عند واقع الحال بما رافقه من تراجع وتخلف وما ولده في النفوس من أسى وانكسار، لمسنا بعضًا من مظاهره في النصوص السابقة، بل انفتحت ذاكرة الشاعر على محطات خالدة من التاريخ العربي والإسلامي، استلهمها في بنية القصيدة؛ لتضيء بها واقعا تتطلع أحداثه ومتغيراته إلى مماثلة الماضي بما فيه من سيادة ونهضة ومجد؛ فإن لم يكن هناك ما يحفز الشاعر من إحداث متغيرات إيجابية حقيقية على مستوى الواقع تشبثت ذاكرته بالتاريخ ووظفت ما تخيرته منه؛ للحث على تغيير سلبية الواقع بقوة الفعل وجهد العمل، فإذا ما تنبه إلى صعوبة إدراك مثل ذلك الفعل، وسلَّم بتخلف بيئة العمل وتعثر أدواتها مال إلى إحلال الماضي محل الحاضر بنفس متفائلة، توظف فيها الذاكرة بعض شفرات الماضي؛ لتجاوز انكسار الواقع وتخلفه وضعفه. وهو في كل ذلك يصدر عن وعي مستنير ونفس متحفزة، تستبطن ما في ذاكرتها من أمجاد غابرة فتدمجه مع ما في سريرتها من رغبة وتطلع وتحله في واقعها. والشاعر، في الحالتين، يستقبل الحياة بطموح الواثق المتفائل الذي لا تهزه عواصف الواقع، يستمد دافعه ذاك من رغبته الملحة ونفسيته المتفائلة الواثقة، مدعمًا له بما اكتسبه من عزة مرتبطة بالتاريخ المرسخ عراقة الأمة ومجدها المتجذر في أعماق الزمن.

ذاكرة الشاعر المتفائلة الساعية إلى تمتين بنية القصيدة بقيم الحداثة الفنية الجديدة، لا تكتفي بالرجوع إلى الماضي؛ لاستذكاره وتوصيفه والإشادة به وبمآثره، فهذا أقرب ما يكون إلى وظيفة الباحث المبتدئ في التاريخ، بل تسعى إلى الإفادة مما فيه من مآثر خلدت حضوره وأعلت من شأنه، بالاستناد إليه؛ لشحذ الهمم وتحفيزها لتغيير واقعها، وتوظيفه لإنتاج دلالات متجددة صادرة عن رؤية خاصة تستلهم التاريخي وتعيد إنتاجه في بنية الحاضر بما يحقق منظور الرؤية الشعرية الوليدة.

وقد استنسخت ذاكرة الشاعر تطلعاتها الساعية إلى تغيير الواقع بقوة الفعل وعنفوانه وجهد العمل ومنجزاته في قصائد عديدة، من ذلك ما نجده في قصيدة المقالح: (الكتابة بسيف الثّائر عليّ بن الفضل) (المقالح، 2004: 580/2)، وهي قصيدة تفعيلة طويلة جاءت في (خمس رقع)، استلهم فيها الشاعر أثر فعل الثائر علي بن الفضل وثورته في تحقيق العدل وتمكين العامة من الفقراء والمضطهدين من حقوقهم، بما يحقق التحول الكلي، للأرض والشعب معًا، كما يتجلّى من مجمل النص؛ إذ تتحول الأرض من الجدب إلى الخصب، وتتحول معيشة الناس من الفقر والجوع إلى الرخاء، ومن الاضطهاد والعبودية إلى العدل والحرية، وتمكينهم من حقوقهم، يقول في الرقعة الأولى:

خذي السَّيْفَ منْ جوعِنا

واكتبي،

فالكتابةُ بالسيفِ بابٌ إلى الخبزِ
نافذةٌ تتألَّقُ أسرارُها..
حينَ تمسكُ بالمقبضِ الشمسُ
تخضرُّ نارُ الكتابةِ
ينهمرُ اللَّمَعانُ على جفنِهِ مطرًا،
والحروفُ - على حَدِّهِ -
تتلألأُ عاريةً كَدَمِ الفَجْرِ ظامئةً،
تتناسلُ أرغفةً،
وصناديقَ حلوى،
وأغنيةً ترتخي . .
كلُّ حرفٍ لسانٌ منَ الماءِ
حنجرةٌ يتوقَّدُ فيها الحنينُ
إلى الفعلِ،
يشتاقُ،
يرقصُ،
يعتصرُ السُّحُبَ المبحراتِ على الغيمِ
مُزْنًا
ليغسلَ جدبَ القرى . .
فاكْتُبِيْنا . . اكْتُبي جوعَنا
حزننا
أبجديّاتِ أشواقِنا،
للعيونِ السَّجينةِ في قفصِ اللَّيلِ.
منْ دمِنا أطْلِعي نجمةَ الصبحِ
شمسًا
ومُدّي شراعَ الكتابةِ قَمْحًا،
وساقيةً منْ نبيذْ.

يتأسس فعل التذكر من عنوان القصيدة (الكتابة بسيف الثّائر عليّ بن الفضل)، ويتركز فعل التذكر على الفعل الثوري ونشدان التغيير والإصرار على إحداث الأثر وترسيخه بالكتابة، ونظرًا لما تتسم به الكتابة من أهمية ورسوخ فقد تخيرها الشاعر معادلًا لفعل الثورة والتغيير بالسيف، معمقًا، بالانزياح والعدول عن المألوف، في تخير الألفاظ وإسناد بعضها إلى بعض، حتمية ذلك الفعل الثوري الذي أصبح ضرورة ملحة يستدعيه واقع الظلم والعوز الذي فرضَ حضوره، وتسلَّطَ على المجتمع.

والشاعر، إذ يستذكر فعل الثورة التي قام بها علي بن الفضل، إنما يستحضر ما اتصفت به من نشدان العدل وتبني حقوق الطبقات الفقيرة والمستضعفة، وما عرفت به من قوة وتمدد أحدث تغييرًا واسعًا وسريعًا في المجتمع. ولهذا فإن ذاكرة الشاعر تستحضر فعل الثورة التاريخي؛ رغبة منها في استنساخ ذلك الفعل في سبيل تغيير واقعها، وتعلل رغبتها تلك بما للثورة (الكتابة بالسيف) من أثر؛ فهي بوابة إلى الخير، وهي الحدث الذي يحفز الشعوب الظامئة على استنطاق حنينها المكبوت في سبيل التطلع للخروج من بؤر العوز والقهر، وبها تستمطر الشعوب خيرات بلدانها وتعتصر ثرواتها فتزدهر البلاد بعد جدبها؛ لذلك نجد الشاعر يلح على استدعاء ذلك الفعل من أعماق التاريخ، في محاولة منه لتحفيز المجتمع للخروج من حالة الارتهان والخضوع التام للظلم؛ أي إن الفعل الثوري التاريخي لم يتجسد، في هذه القصيدة، من زاوية الدلالة على الحدث الآني بوصفه قائمًا ومعادلًا له؛ إذ إن فعل الثورة غير حاضر على الأرض، بل جاء أسلوب استدعائه في بنية القصيدة بوصفه عنصرًا محفزًا لاستنطاق المجتمع واستنهاضه بدفعه للثورة في سبيل تغيير واقعه؛ حيث نلمس، في سياق المقطع السابق، عددًا من الجمل المركزية، الدالة على ذلك، التي تتأسس عليها بنية النص اللغوية والدلالية، منها قوله في مفتتح القصيدة: (خذي السيف من جوعنا واكتبي...)، وقوله: (حين تمسك بالمقبض الشمس...، فاكتبينا، اكتبي جوعنا، أطلعي نجمة الصبح، مدي شراع الكتابة)... هكذا نجد الشاعر مصرًا على استدعاء فعل الثورة عبر عدد من أفعال الأمر الدالة على رغبته الجامحة في التغيير ونشدانه للثورة عبر استحضارها بالتذكر والأمر.

والشاعر في سبيل التأثير في المتلقين يربط فعل الثورة بمآثرها التي تحقق الرخاء والحرية، كما يتضح في الجمل التي جاءت بعد الجمل التي تستدعي الثورة وتحث عليها. ويلاحظ أن هذا السياق الملح على استدعاء الثورة وبيان منافعها يستنسخ في بقية الرقع التالية ويتكاثف في الرقعة الثانية، وهذا يعزز القول بحنين الشاعر إلى الثورة ولجوئه إلى الذاكرة؛ لاستدعائها نظراً لعدم تجسدها في الواقع. وقد تماوجت دلالات القصيدة بين استدعاء الثورة وبيان نعمها على البلاد والعباد، وجاء إسناد فعل الكتابة إلى الفاعل السيف في عنونة القصيدة للدلالة على ما ينشده الشاعر من تغيير مُلِحٍّ وحضاري في آن واحد.

ويختتم الشاعر القصيدة كما بدأها مستذكرًا مبادئ ثورة علي بن الفضل، ومستنهضًا همم الشعب المكبل بالقهر والكبت والجوع، ومحفزًا له لإشهار سيف الحق والعدل في وجوه الطغاة المعاصرين، في سبيل الانتصار وترسيخ العدل والرخاء للمجتمع:

أفيقي منَ الغضبِ امْتشِقي
سيفَ جوعِ القُرَى
والمدائنِ،
واسْتَرْجِعي لغتي..
قُرْمُطِيًّا أتيتُ
وها أنا – ثانيةً - قُرْمُطِيًّا أعودُ،
تناجزُني أعينُ الفقراءِ الوفاءَ بِوَعْدي،
وتسألُني الأرضُ عَدْلًا لأبنائِها..
فادْخُلي في كتابي
اقْرَئي نارَ أشواقِهِ،
واكْتُبي حُبَّنا

أبجديّاتِ أشو اقِنا..
وردةً نتجوَّلُ في شمسِها مطرًا
نَتَفَتَّحُ في نارِ أورِ اقِها،
لغة لطيورِ النهارْ.

يجهد الشاعر نفسه في سبيل خلق وعي يؤمن بالتغيير ويسعى لتحقيقه؛ لهذا نجده يجمع بين الذاكرة والدعوة إلى الفعل؛ فالثورة التاريخية التي انتصرت للفقراء، بالرغم مما ألحق بها من تزييف وتشويه أساء لحضورها التاريخي في وعي العامة، هي نموذج تستنسخه الذاكرة في القصيدة؛ لتسوّغ به دعواها لثورة جديدة ينتصر فيها الشعب لحقوقه ويدفع عن كاهله ظلم الطغاة والمستبدين. والقصيدة في هذا تتساوق بالأسلوب نفسه الذي بدأت به، غير أن الشاعر هنا بلغ أقصى درجات الانفعال في نشدانه للثورة؛ إذ تماهت شخصيته بشخصية القائد الثائر، وأصبح فكره محتوى أدبيات الثورة وصوتها المحفز والمبلور أهدافها المستمدة من التاريخ الثوري الذي تستحضره الذاكرة.

القصيدة في تبنيها مفهوم الثورة، وانفعالها المتحمس في سبيل بلوغ ذلك، تحمل في ثناياها طموح الشباب الذي تلبس نفسية الشاعر المتحفزة إلى التمرد على الأوضاع الاجتماعية في الدواوين الأولى من نتاجه الشعري، وهو في قصيدته هذه، لا يجسد فعلًا ثوريًا قائمًا على الأرض، بل يستدعي التاريخ في سبيل استنهاض الهمم وتحفيز المضطهدين للثورة على الظلم في سبيل تغييره، مستعينًا بالذاكرة لخلق جملة من صور المفارقات بين الواقع والمتغير في مسعاه؛ لخلق الأثر في نفوس عامة الناس.

ثانيًا: الذاكرة الحالمة المتطلعة إلى المستقبل

عايش شعراء اليمن تحولات الأحداث خلال عقود من الزمن، فتجلت في كثير من شعرهم سمات ذلك التحول المستمر، ونجد، في ثنايا ذلك، كثيرًا من ومضات التفاؤل والتوهج والتطلع، في محطات عديدة من نتاجهم الإبداعي، لكنها سرعان ما تتلاشى، بفعل متغيرات الأحداث وتوالي الانكسارات؛ لتسود سمات التراجع والتخلف والضعف، فيمتد أفق مسود لا ينذر بنور في كثير من التجارب، وقد كان من نتاج ذلك التراجع الواقعي أن عاد الشعراء بذاكراتهم إلى التاريخ؛ لمحاورته واستنطاقه واستعارته جسدًا وروحًا، وإحلاله محل الواقع بالصورة التي وقفنا على بعض ملامحها سابقًا، وبث بعض ظلاله في بيئة الحاضر والمستقبل كما سنرى. وقد جاء استدعاء التاريخي بوساطة الذاكرة الحالمة فاتحًا أفق الزمن أمام القصيدة لسفر طويل، عرَّجت عبر مسالكه على تخوم من ماضيه القصي، ثم استدارت ببعض حمولاته؛ لتلج به فضاءات المستقبل المجهول.

إن استدعاء الذاكرة للماضي وتوظيفه في بنية القصيدة لا يتم دون تخطيط مسبق؛ إذ لا يتخلق خارج حدود الرؤية الفنية التي أبدعت القصيدة، ورسمت الملامح والخطوط الأولية التي سبقت لحظة الخلق الشعري؛ ولهذا يمكن وضع تصور بسيط لطريقة استحضار الماضي في كونه يمر على المخيلة بمثابة شريط سينمائي تستعيده الذاكرة لحظة الخلق، غير أن استحضار ذلك الشريط لا يتم بصورته التاريخية المختزلة في الذاكرة والواردة في المدونة التاريخية؛ إذ تعمل ذاكرة الشاعر على إعادة كتابة سيناريو ذلك التاريخ وتوليف أحداثه وتفليمه في قوام جديد متكامل من الإبداع والخلق الفني الجديد.

والشاعر حين يعود إلى الماضي ثم يستحضره في قوام من الخلق المستقبلي المأمول إنما يسعى إلى خلق آفاق جديدة أمام واقع مغلق تصالح معه، أو أحس بصعوبة تغييره، فيرسم ملامحه خيالًا جامحًا متمردًا على الواقع وحالمًا بواقع مغاير تتجذر منابته من بيئة الماضي وتمتد سامقة في فضاء الحلم وآفاقه الممتدة. ولعل هذا نابع من استشعاره بضرورة التغيير

ورغبته في خلق فضاءات للنور، تخترق جدار الواقع المظلم وتعيد تشكيله في عوالم من الحلم. نجد شيئًا من سمات هذا النمط من الشعر المستند على الذاكرة في سبيل فتح آفاق جديدة من الحلم في قصيدة البردوني (الوجه السبئي.. وبزوغُهُ الجديد) (البردوني، 2002: 809/1) التي نلمس في خاتمتها، بالرغم من سوداوية الواقع، إحساسًا بالتفاؤل، وربطًا، بين الماضي والمستقبل، قادرًا على تجاوز عثرات الواقع وتخلفه؛ فبعد أن تتبعت ذاكرة الشاعر أخبار الماضي وما فيه من مجد آفل، وتلمس وعيه واقع الحال المغاير لماضيه، فتح نافذة الأمل على بعث جديد يحمل في ثناياه شفرات ذلك المجد السبئي المتجذر في أعماق التاريخ والمشع في الذاكرة، فيعاود حضوره، عبر نافذة الأمل المفتوحة على المستقبل، بوجه جديد مشرق في مخيلة الشاعر الحالم، فيمزق ليل ظلمة الحاضر الحالك؛ حيث يختم قصيدته بقوله:

ولكـــن متـــى مُـــتَّ، يُنبـــي العبيـــرُ ... علـــى ســـاعديْكَ، وعـــن مـــا ابتَنَيـــتْ
ومـــا دُمـــتَ تبنـــي، وتهـــدي ســـواكَ ... ســـيحكونَ، منـــكَ إليـــكَ اهتـــديتْ
ومـــن تجربـــاتِ النهايـــاتِ، جئـــتَ ... وليـــدًا، وقبـــلَ البـــزوغِ انتَقَيـــتْ
أمِثْـــلُ الربيـــعِ، لبِســـتَ المغيـــبَ ... و أنضـــرُمـــن كُـــلِّ آتٍ أتيـــتْ

يؤمن الشاعر بقدرة الإنسان اليمني على تغيير واقعه بالرغم من تخلفه وسوداويته؛ فعلى الرغم من اغترابه خارج وطنه وتجرعه صنوف المهانة في غربته فإن ما يبذله من جهد وما يحدثه من أثر، يسهم في بناء تلك المجتمعات ويهديها سبيل النماء.

وهذا الجهد سيخلد حضوره، وستشكل تجاربه تلك محطة ولادة حضارة جديدة تشيدها سواعده المشردة بما اكتسبته من خبرات ووعي وقناعات ستغير صورة مجتمعه وتعيد رسم ملامح ماضيه في وجه الغد السبئي المأمول؛ إذ يرى الشاعر أن محطة الواقع الآني، بما فيه من تراجع، ما هي إلا محطة مرور، اقتضتها حركة الزمن، سرعان ما يعاود فيها ربيع وجه الحضارة السبئي حضوره بهيئة أكثر نضارة ورخاء عما كان عليه في الماضي.

هكذا يتطلع الشاعر ويتشبث بالحلم، عبر دمج شفرات من الماضي الحضاري مع ما يبذله الإنسان المعاصر من جهد، ويعانيه من عناء، ويحدثه من أثر سيخلد ذكره ويمهد لتحول مستقبلي يتكئ على الماضي، فيستحضره ويعيد تشكيل آفاقه في صورة من صور الحلم المتطلع إلى غدٍ حضاري أفضل.

كما نلمس انفتاح ذاكرة الشاعر التاريخية على الحلم المتطلع إلى غدٍ مشع بالتطور والرخاء والسلام في بعض نصوص المقالح الشعرية التي يجنح فيها إلى السكون النفسي الذي تلبس روحه بعد ديوان: (الجسد العائد من الموت)، والتي تنتزع فيه شاعريته من خيالاتها الحالمة عوالمها البديلة المغايرة لعالم الواقع المعيش، من ذلك ما نجده في (القصيدة السابعة) من كتاب صنعاء (المقالح، 2004: 34/2)؛ حيث يقول:

نحتتْهُ السماءُ على مَهَلٍ
رفعتْهُ ليرقَى إليها
وشادتْ عواميدَهُ منْ بقايا نجومٍ خَلَتْ..
قصرُغَمْدانَ،
لا شيءَ يشبهُ أحجارَهُ
ونو افذَهُ المرمريّةَ،
لا شيءَ يشبهُهُ..

كانَ يحدو القوافلَ في الشّامِ
في مِصْرَ،
يصطادُ منْ فارسٍ غيمَ تَمُّوزَ
تفترشُ السُّحُبُ الرّاكضاتُ وسائدَهُ
وتنامُ بشُرْفاتِهِ..
الشمسُ عندَ الشُّروقِ
تُسارعُ كي تتملَّى عذوبتَهُ،
تتلكَّأُ عندَ الغروبْ.
* * *
(أينَ هوَ؟
أينَ قصرُ غَمْدانَ؟
تتساءلُ عيونُ الزُّوّارِ
ولا يأتيهم الجوابُ إلّا في ساعةٍ متأخرةٍ منَ النهارِ
أو في ساعةٍ متأخرةٍ منَ اللَّيلِ:
هوَ هنا..
في المسافاتِ الزَّرقاءِ الواقعةِ بينَ الأرضِ والسَّماءِ.
حينَ تأتي الأمطارُ
يخرجُ على شكلِ قوسِ قزحٍ
هذه نوافذُهُ
وتلكَ شرفاتُهُ
وهذه طيورٌ بيضاءُ
تحاولُ الاقترابَ
منَ السَّتائرِ الملوَّنَةِ الموشّاةِ بالذَّهبِ..
شبابيكُ منَ الماءِ
وتماثيلُ منَ الضوءِ
وما لا يحصى منْ قصائدِ الشعرِ
المرسومةِ بحنينِ الشمسِ
وتنهُّداتِ الرِّياحْ).

تتماوج القصيدة بين الذاكرة المفتونة بإرث الماضي ومباهجه الحضارية، وسحر المخيلة الحالمة المتطلعة إلى غدٍ مشرق؛ حيث تستند ذاكرة الشاعر على إرث الماضي الحميم فتفسح فضاء القصيدة للمخيلة؛ لبعث عوالمها الخاصة، فتحيك نسيجها في آفاق من الحلم والرؤيا التي تربط عالم الذات المتشكل بملامح فنتازية، بأمل حدوث متغير واقعي يقارب ذلك الخيال ويجسده، ويعيد للوحة الماضي حضورها وتوهجها.

النظر في القصيدة من منظور عام يكشف عن تناغم بنيتها الخارجية مع ما تجسده من تموجات التذكر والحلم، يتجسد ذلك التموج في كون قوام القصيدة يتكون من لوحتين: تستذكر الأولى شيئًا من حضارة الماضي، مختزلًا في قصر غمدان التاريخي، وتطرز ذلك الحضور التاريخي بكثير من الصور المتخيلة التي ألبست الذاكرة الشعرية لباسًا أسطوريًا يعلي من منزلته ويقدسه.

ولعل هذه اللوحة الشعرية، التي أسهمت في إضفاء صفة القداسة الأسطورية على قصر غمدان، ناجمة عما رافق الذاكرة التاريخية من أخبار أعلت من تفرده وارتقت به حضاريًا وهندسيًا إلى مصاف تتجاوز الواقع إلى المتخيل. وترسم اللوحة الثانية أفق المستقبل بريشة الذات ورغباتها، خالقة من فضاء الحلم مستقبلًا مشرقًا يؤسَّس على أعمدة الماضي وحضارته.

هذا التحول الدلالي والزمني بين الماضي والمستقبل يرافقه تحول إيقاعي وبنائي، تجسد في تحول صوت القصيدة من اتساقه وتناغمه الإيقاعي في اللوحة الأولى، إلى انسيابه الحر غير المحكوم بمنطق الإيقاع العروضي. وهذا التحول الصوتي يتعاطى مع ما رافق دلالات القصيدة من استبدالها نسق الخيال الحر الفاتح أفق المستقبل، والقصيدة معًا، لفضاءات من التحرر من القيود المفروضة على مستوى الواقع والإبداع، بنسق التذكر المقيد جزئيا بإيقاع التاريخي، والمنفتح، في الوقت نفسه، على مخيلة الحاضر وإيقاعه المتجدد؛ أي إن القصيدة في بنيتها العامة تتجاوز إيقاع الماضي إلى خلق فضاءات تتمرد بها عن اختزال اللحظة الموروثة في قيود واقعها، فتجنح بها إلى آفاق جديدة متخيلة، تشير ضمنيًا إلى عمق رفض الذات الشاعرة لواقعها، على الرغم من تعايشها معه والاستكانة إليه.

هكذا تتجلى ذاكرة الشعر في بعض ملامح حضورها في قصيدة الحداثة في الشعر اليمني ندبًا للواقع، وذكرى تحن بها إلى ماضيها كلما جال نظرها في ليل واقعها المرير، وتحفيزًا له للخلاص من القيود التي عثرت به وكبلته في بؤرة التخلف والعجز، وتطلعًا لغدٍ مشرق لا يخلو من الإيحاء عن حالة الهروب المعلن من الواقع إلى الحلم في كثير من تجارب شعراء التمرد، والهروب الخفي عند بعض شعراء الحداثة الذين تعايشوا مع حاضرهم واستكانوا إليه، وقد تبين لنا في ثنايا الدراسة أن ذاكرة الشعر تتسم بتنوعها وتعدد مرجعياتها وتمددها في أعماق التراث الإنساني بكل أبعاده وملابساته الموروثة.

وإذا كان هناك من دعوة ندعوها أو توصية نوصي بها، فإننا ندعو الباحثين والدارسين إلى الكشف عن دلالات توظيف شعراء العرب في العصر الحديث للتاريخ في شعرهم، عبر تحليل النصوص؛ بهدف استنطاق دلالاتها الخفية، بوصف التاريخ مادة شعرية وظفت بأسلوب حداثي يتسم بقدرته على بلورة منظور الشعراء، ويوحي بموقفهم تجاه ماضيهم، وحاضرهم، ومستقبلهم، ويعبر عن الوقائع والتطلعات بأسلوب فني وجمالي غير مباشر.

المراجع:

البردوني، ع. (2002). *الأعمال الشعرية 1-12* (ط.1). الهيئة العامة للكتاب.

المقالح، ع. (2004). *الأعمال الشعرية الكاملة* وزارة الثقافة والسياحة.

العزيزة، س. م. (2009). توظيف التراث التاريخي الإسلامي في شعر محمود درويش، *مجلة جامعة الأزهر*، (11)، 99 – 130.

الزغلول، س. (2018). *الذاكرة الثقافية للقصيدة العربية في العصر الحديث* (ط.1). أزمنة للنشر والتوزيع.

حالو، ش. ا. أ. (2023). الشعر الجاهلي بين الذاكرة الفردية والجماعية، *مجلة دراسات: العلوم الإنسانية والاجتماعية*،50(5)، 596 - 612.

ابن قتيبة. (2003). *الشعر والشعراء* (أحمد محمد شاكر، تحقيق). دار الحديث.

حيدرة، خ. ع.؛ فرج، ب. (2025). العتبات النصية في الشعر العربي الحديث: دراسة في البنى الدلالية والجمالية في قصائد محمد علي شمس الدين، *المجلة الدولية لدراسات اللغة العربية وآدابها*، *7*(2)، 34 - 44.

الحداد، م. ع. ك. (2009). العلاقة بين العتبات النصية والمتن في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (دراسة نقدية)، *مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية*، *4*(2)، 97 - 111.

ابن منبه، و. (1347). *كتاب التيجان في ملوك حمير: عن وهب بن منبه* (ط.1). مركز الدراسات والأبحاث اليمنية.

محمود درويش: المختلف الحقيقي (دراسات وشهادات): غسان زغطان وآخرون، دار الشروق، 1999م.

مكوع، ف. ن. (2010). *المضامين الدينية والتراثية في الشعر العربي الحديث (شعراء اليمن مثالاً)* (ط.1). إصدارات جامعة عدن.

التطاوي، ع. (1998م). *المعارضات الشعرية: أنماط وتجارب*، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

References

Al-Baradūnī, ʿ. (2002). *Al-aʿmāl al-shiʿriyyah* (Vols. 1–12, 1st ed.). Al-Hayʾah al-ʿĀmmah lil-Kitāb.

Al-Maqāliḥ, ʿ. (2004). *Al-aʿmāl al-shiʿriyyah al-kāmilah*. Wizārat al-Thaqāfah wa-al-Siyāḥah.

Al-ʿAzīzah, S. M. (2009). Tawẓīf al-turāth al-tārīkhī al-Islāmī fī shiʿr Maḥmūd Darwīsh. *Majallat Jāmiʿat al-Azhar, 11*, 99–130.

Al-Zaghlūl, S. (2018). *Al-dhākirah al-thaqāfiyyah lil-qaṣīdah al-ʿArabiyyah fī al-ʿaṣr al-ḥadīth* (1st ed.). Azminah lil-Nashr wa-al-Tawzīʿ.

Ḥālū, Sh. A. A. (2023). Al-shiʿr al-jāhilī bayna al-dhākirah al-fardiyyah wa-al-jamāʿiyyah. *Dirāsāt: Al-ʿUlūm al-Insāniyyah wa-al-Ijtimāʿiyyah, 50*(5), 596–612.

Ibn Qutaybah. (2003). *Al-shiʿr wa-al-shuʿarāʾ* (Aḥmad Muḥammad Shākir, Ed.). Dār al-Ḥadīth.

Ḥaydarah, Kh. ʿ., & Faraj, B. (2025). Al-ʿatabāt al-naṣṣiyyah fī al-shiʿr al-ʿArabī al-ḥadīth: Dirāsah fī al-bunā al-dilāliyyah wa-al-jamāliyyah fī qaṣāʾid Muḥammad ʿAlī Shams al-Dīn. *Al-Majallah al-Dawliyyah li-Dirāsāt al-Lughah al-ʿArabiyyah wa-Ādābihā, 7*(2), 34–44.

Al-Ḥaddād, M. ʿ. K. (2009). Al-ʿalāqah bayna al-ʿatabāt al-naṣṣiyyah wa-al-matn fī kitāb *Al-shiʿr wa-al-shuʿarāʾ* li-Ibn Qutaybah: Dirāsah naqdiyyah. *Majallat Jāmiʿat Kirkūk lil-Dirāsāt al-Insāniyyah, 4*(2), 97–111.

Ibn Munabbih, W. (1347 AH). *Kitāb al-Tījān fī mulūk Ḥimyar: ʿAn Wahb ibn Munabbih* (1st ed.). Markaz al-Dirāsāt wa-al-Abḥāth al-Yamaniyyah.

Zaqṭān, Gh., et al. (1999). *Maḥmūd Darwīsh: Al-mukhtalif al-ḥaqīqī (Dirāsāt wa-shahādāt)*. Dār al-Shurūq.

Makūʿ, F. N. (2010). *Al-maḍāmīn al-dīniyyah wa-al-turāthiyyah fī al-shiʿr al-ʿArabī al-ḥadīth: Shuʿarāʾ al-Yaman mithālan* (1st ed.). University of Aden Publications.

Al-Taṭāwī, ʿ. (1998). *Al-muʿāraḍāt al-shiʿriyyah: Anmāṭ wa-tajārib*. Dār Qubāʾ lil-Ṭibāʿah wa-al-Nashr wa-al-Tawzīʿ.